

المقدمة

لقد أتاح الموقع الجغرافي الفريد للدلتا أن تصبح في ملتقى التجارة العالمية بين الشرق والغرب بطريق البر والبحر، مما ساعد على ازدهار الحياة الاقتصادية في العصر الفاطمي، فبرزت مدن ذات أهمية اقتصادية فائقة على الطرق التجارية فعلى سبيل المثال نشطت حركة التجارة بمدن الحوف الشرقي وزخرت بكافة المنشآت التجارية التي لبت احتياجات التجار القادمين والنازحين من وإلى مصر وبلاد الشام وشبه الجزيرة العربية، فضلا عن المدن الساحلية كدمياط والفرما والإسكندرية التي ضربت بسهم وافر في مجال التجارة الداخلية والخارجية على حد سواء بحكم وقوعها على ساحل البحر المتوسط.

ومما ساعد على الرواج التجاري شهرة الإقليم بزراعة كافة المحاصيل كالتمر وقصب السكر والكتان الأمر الذي أدى إلى قيام صناعات متعددة، ومن أهمها صناعة النسيج التي قامت على الإنتاج الزراعي حيث حازت على شهرة عظيمة وكانت تصدر إلى كافة أنحاء العالم.

ولم يغفل الخلفاء الفاطميون أهمية الإقليم الاقتصادية، فآخذوا على عاتقهم عبء الدفاع عنه وصد المغيرين فعلى سبيل المثال- لا الحصر- حشدت تينيس جيشا كامل السلاح والعدة للدفاع عنها.

أما على الجانب الاجتماعي فلقد شهد الإقليم هجرات القبائل العربية النازحة عقب الفتح العربي لمصر عبر سيناء، واستقروا في كافة أنحاء الإقليم وانصهروا مع الأقباط واستفادوا من خبرتهم في شئون الزراعة التي مارسها العرب فيما بعد. أما بالنسبة للحياة الثقافية فشهدت مدينة الإسكندرية هجرة العلماء النازحين من كافة البلاد وبصفة خاصة بلاد المغرب، وكانت من أكبر معاقل الثقافة الإسلامية آنذاك للدراسين في كافة العلوم الدينية.

ورغم حرص الخلفاء الفاطميين على نشر المذهب الشيعي بكافة الوسائل في مصر نجد أن الإسكندرية صمدت واتخذت موقفا معاديا من المذهب الشيعي حتى نهاية العصر الفاطمي.

كما شارك شعراء الإقليم بدور فعال في إثراء الحياة الثقافية. وقد شهدت الدلتا ازدهارا في كافة المجالات ونلمس ذلك بوضوح من خلال إشارات الرحالة الذين مروا بمدن الإقليم في العصر الفاطمي وامتدحوه بعبارات رائعة ن مما استرعى انتباهي ودفعني لدراسة ذلك الازدهار ورصده وإظهاره في كافة النواحي.

وقد قسمت بحثي إلى أربعة أبواب، فتناولت في الباب الأول عوامل ازدهار الحياة الاقتصادية وعوامل تدهورها وجعلته من فصلين، خصصت الفصل الأول لعوامل ازدهار الحياة الاقتصادية في الدلتا، ومن أهمها الموقع الجغرافي، والمحاصيل الزراعية بالإقليم كالقمح والأرز والكتان وغير ذلك وأشارت إلى الثروة الحيوانية إلى جانب توافر المواد الخام المعدنية كالفضة والنظرون وكذلك استتباب الأمن.

وفي الفصل الثاني عالجت الدراسة عوامل تدهور الحياة الاقتصادية كالاضطرابات السياسية الأمر الذي أدى إلى تفشى الفوضى في ربوع الدلتا، وتصدى خلفاء الدولة الفاطمية للقضاء عليها وأشارت إلى ثورة السودانيين وما ارتكبوه من أعمال تتصف بالوحشية، مما زعزع الاستقرار إلى حد ما بالدلتا آنذاك.

وكذلك ألقيت الضوء على أثر التهديد الصليبي لمدن الدلتا الساحلية كدمياط والفرما، وكذلك تنيس على الحياة الاقتصادية.

كما أشارت إلى العوامل الطبيعية والتي تمثلت في عدم ثبات النيل عند مستواه المائي للرى، مما أدى إلى ارتفاع الأسعار وتفشى الأوبئة والمجاعات.

وتناولت في الباب الثاني دراسة الحياة الاقتصادية وقسمته على أربعة فصول تناولت في الفصل الأول الموارد المالية فتحدثت عن الخراج والجزية والزكاة والمكوس والأحباس والمستغلات والمواريث الحشرية كما أشارت إلى المصروفات.

وفي الفصل الثاني تناولت بالبحث الزراعة مشيراً إلى نظم الري كرى الحياض والرى الدائم والرى بالالات، وإلى الترع والخلجان وإلى الجسور السلطانية والبلدية، وإلى أقسام الأراضي الزراعية وملكيته وإلى الدورة الزراعية الصيفية والشتوية إلى جانب أدوات الزراعة والثروة الحيوانية.

وفي الفصل الثالث تناولت بالدراسة الصناعة، فأشرت إلى صناعة النسيج وصناعة السكر والعسل وصناعة الزيوت وصناعة الزجاج والخزف وصناعة السفن، وصناعة طحن الحبوب وكذلك صناعة الحصر وورق البردى.

وتحدثت في الفصل الرابع عن التجارة، فأشرت إلى مراكز التجارة الداخلية بشرق الدلتا كبلبيس وقلوب واشموم طناح ودقهلة وكذلك مراكز التجارة الداخلية بوسط الدلتا كالمحلة وأبيار، ومراكز التجارة الداخلية بغرب الدلتا كدمنهور وفوه.

وأشرت إلى الأسواق المحلية ونظمها والموازين والمكايل والمعاملات المالية وطرق التجارة الداخلية البرية والبحرية.

كما أُلقيت الضوء على التجارة الخارجية متناولا مدنها كدمياط وتنبس والفرما والإسكندرية ورشيد. إلى جانب طرق التجارة الخارجية وعلاقات هذا الإقليم بالبلاد المجاورة.

أما الباب الثالث فخصصته لدراسة الحياة الاجتماعية في الدلتا وقسمته إلى فصلين ، تناولت في الأول منهما عناصر السكان ملقيا بعض الضوء على القبائل العربية النازحة إلى هذا الإقليم من عدنانية وقحطانية، إلى جانب عنصر المغاربة والسودانيين. كما أشرت إلى أهل الذمة من الأقباط واليهود واستيطانهم في بعض المدن التجارية بالدلتا.

وعالجت في الفصل الثاني منهما الحياة الاجتماعية لعناصر السكان، فأشرت إلى المرأة بعض العادات والتقاليد المتبعة فيه، كعادات الزواج والولادة والختان مشيرا إلى المساكن في المدن والقرى والملبس والطعام والشراب والجناز. وأقيت بعض الضوء على أهم الأعياد والمواسم الدينية الإسلامية والقبطية مشيرا إلى طرق احتفالاتهم بها ووسائل التسلية والترفيه في هذا المجتمع آنذاك.

وفيما يختص بالباب الرابع تناولت بالدراسة الحياة الثقافية وقسمته إلى فصلين في الأول منهما مراكز العلم والحياة فيها فأشرت إلى الكتاتيب والمساجد والمدارس والربط الخوانق والزوايا وإلى الحياة العلمية كالطب وعلم اللغة والنحو والتاريخ والجغرافيا.

وعالجت في الفصل الثاني العلوم الدينية والدراسات الأدبية، فأقيت الضوء على ثغور الدلتا الإسلامية وإلى دراسة العلوم الدينية التي كانت تدرس بالإقليم كعلم القراءات والتفسير والحديث والفقه وفي الدراسات الأدبية تناولت بالدراسة أهم شعراء الدلتا الذين ساهموا في النشاط الثقافي كابن وكيع التنيسي وابن قادوس وابن ظافر الحداد وغيرهم.

وذيلت بحثي بخاتمة لخصت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها خلال فصول الدراسة، معتمدا في ذلك على ما وقع لدى من مصادر ومراجع.

والله ولي التوفيق،،

الباحث

عبد الحميد حسين محمود حموده